المعادل الموضوعي في شعر أبي القاسم الشابي

دراسة تطبيقية في ديوانه "أغاني الحياة"

محمد نوري عبدالسلام بن قمو (•)

استلم بتاريخ 2022.11.08 قبل بتاريخ 2022.12.18 نشر بتاريخ 2023.01.08

الملخص:

هذه الدراسة تهدف إلى دراسة معيارٍ جديدٍ من معايير النقد الأدبي الحديث، دخل الساحة الأدبية العربية عن الآداب الغربية، وهو ما يعرف بالذاتية والموضوعية أو "المعادل الموضوعي" الذي كان ظهوره على يد الناقد الأمريكي (ت.س.إليوت) في قوله: (**إن الشعر هروب من العاطفة بتحويلها إلى فن**).

وفي هذا قد يخلص الأديب لتجسيد انفعال أو حادث معين أثر في حياته بطريقة مباشرة، وفي هذا نشير للذاتية وهي أولى الصور بالتعبير، ولكن هناك ظروف اجتماعية ونفسية وسياسية يلجأ الشاعر إلى تجسيد معاناته بطريقة غير مباشرة وفي هذا إشارة إلى "المعادل الموضوعي" الذي يستخدمه الأديب ويوظفه في قصائده الشعرية. ويدرس هذا البحث مدى استخدام الشابي في ديوانه "أغاني الحياة" للمعادل الموضوعي، في دراسة تطبيقية لتسلط الضوء على بعض الألفاظ التي استخدمها الشابي في قصائده الشعرية المتنوعة لأثره الفني متوافقة مع إحساسه وشعوره، لظروف نفسية واجتماعية وسياسية جسّدها بطريقة غير مباشرة لجأ إليها وهو ما يعرف بالذاتية الموضوعية أو المعادل الموضوعي.

الكلمات المفتاحية: المعادل الموضوعي، الشعر، تطبيقية.

(•) قسم اللغة العربية/ كلية التربية/ الجامعة الأسمرية الإسلامية. M.gammo@asmarya.edu.ly

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين...

وبعد، هذه الدراسة تهدف لتقويم رؤى جديدة للتعامل مع القراءة الشعرية وتفعيل دور المتلقي في التحليل النقدي، فالشعر لا يعبر عن الفكرة فحسب بل يعبر عن معادلها العاطفي والصورة الفنية التي نحصل عليها وفق معيار المعادل الموضوعي، هي: التفاعل بين الحس الوجداني، والفكر، والعاطفة التي تلعب دوراً كبيراً في ذلك.

فالمعادل الموضوعي مصطلح نقدي عُرف مع توماس إليوت الشاعر الناقد. وكوَّن الجزء الأساسي من آرائه النقدية، وانتهى بعد ذلك إلى كونه أداة نظرية، اعتمدت معياراً للشعر. فالمعادل الموضوعي من أهم المصطلحات النقدية التي تدعو إلى الارتقاء بالعمل الأدبي والنهوض به من مستوى الذاتية إلى مستوى الموضوعية.

في ضوء ذلك نرى مدى تصور الشابي لهذه المفاهيم والاتجاهات الشعرية التي حاول من خلالها تطبيق هذا المصطلح النقدي الحديث، وهو المعادل الموضوعي في ديوانه (أغاني الحياة) وستكون هذه الدراسة تطبيقية استقرائية نحاول من خلالها كيفية استخدام الشابي لهذا المصطلح النقدي في خطاباته الشعرية، ومدى قدرته على ذلك في إيصال ما يريد إيصاله إلى متلقيه في جميع الجوانب سياسية كانت، أو اجتماعية، أو نفسية.

ولهذا بدأت الدراسة بتمهيد وقسّمت إلى ثلاثة مباحث، وخاتمة متضمنة لأهم النتائج التي تم التوصل إليها، فكان عنوان المبحث الأول: بين الذاتية والموضوعية وأثرها في الشعر الغنائي، وفي المبحث الثاني: تناولنا المعادل الموضوعي في الشعر العربي الحديث، وأما المبحث الثالث: دراسة المعادل الموضوعي في شعر أبي القاسم الشابي دراسة تطبيقية على بعض قصائده من ديوان "أغاني الحياة" تّعرضت فيها إلى مهارة الشابي الشعرية في استخدام المعادل الموضوعي في قصائده التي حاولتّ أن أختار بعضاً منها للدراسة.

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

التمهيد:

الشعر ديوان العرب، ورمزاً لحياتهم وتخليداً لمفاخرهم ومآثرهم وتاريخهم الطويل، تخصص فيه الكثيرون وبحثوا في جوانبه، وتمثلوا له بالأغراض البلاغية والنقدية المتعددة، منها التشبيه، والاستعارة والمجاز، والكناية، وصولاً إلى التورية، والتناص، حتى تقدّمت الدراسات، وأصبح للأدب شأن عظيم بدراسات متعددة متقدمة منها الأسلوبية، والسيميائية، والبنيوية، والرمز والقناع، وجال في هذا التطور بعض المفكرين الذين أثروا التراث الأدبي بنظرياتهم، وما اعتمدوه من أشعارهم بالتعبير الغير مباشر وهو ما يسمى بالذاتية والموضوعية أو ما يعرف بالمعادل الموضوعي، وهو نوع من الأسلوب الفني الإبداعي، الذي يقوم على أساس الأسلوبية، وهذا المعادل الموضوعي الذي اعتمده الكثير من الشعراء ليعبروا به عن بعض مطالبهم بستار خفي وهو الاختفاء وراء مفرداتهم الشعرية، خوفاً من الظروف السياسية السائدة في تلك الفترة المليئة بالمصاعب الجمّة، وكان من بين من استعمل هذا المعادل الموضوعي، أبوالقاسم الشابي الشاعر التونسي الوطني، الذي رأى في بلاده الظلم والقهر من الاستعمار الفرنسي الذي منع الحريات، وسلب الخيرات، وجثم على الأرض عمد الشابي إلى الطبيعة التي نظر فيها أنها الملاذ الوحيد للتعبير عن خلجات نفسه، وإيصال صوته إلى شعبه لإيقاظه من غفلته، لمناهضة الاستعمار، وتحرير بلاده من تسلطه وقهره، فكان صوته مدعاة إلى حركة الشعب وثورته ضد الاستعمار الفرنسي.

ولهذا نجد من الشعراء من يُؤثر الذاتية على غيرها، وما يهمنا من الحديث عن الذاتية سوى توضيح المعنى لبيان ما يقابلها وهو موضوع "المعادل الموضوعي" ودور الشابي في توظيف ذلك في قصائده الشعرية سواء كانت سياسية وطنية أو اجتماعية عانى منها في جوانب حياته المتعددة.

المبحث الأول

بين الذاتية والموضوعية وأثرها في الشعر الغنائي

الحديث عن الذاتية والموضوعية يقودنا إلى الحديث عن عناصر الشعر، التي تلهم الشاعر وتأثر في وجدانه الداخلي، على إثرها يتأثر وينسج شعراً يعبر عن موقفه وتجاربه الحياتية، وبذلك فإن من عناصر الشعر "الفكرة باعتبارها شيء مشترك بين الأعمال الأدبية، واللغة عنصر مشترك، والعواطف هي ألوان أو أصباغ تصبغ النص فتجعله يتنقل إلى القارئ أو المتلقي برنَّات انفعالية تحدثُ أثراً شبيهاً بما عند المؤلف".(1)

والخيال "مرتبط بالعاطفة ارتباطاً شديداً، وكلاهما موضحٌ للفكرةٌ ومثبت لها في نفس المتلقي فالصورةُ تخلق أحاسيس معينة وهذه الأحاسيس هي العواطف. والخيال هو القدرة وراء تكوين الصورة، والشعر عامة عماده الصور، ويرى النقاد أن الخيال فيض تلقائي للعواطف القوية، فهذه العواطف تلح على صاحبها مستفيدة من قدرته التخيلية على إفراز صور مؤثرة غير وهمية لأن الوهم يسخّر الصورة لمشاعر فردية غير منسقة أو مؤثرة".(2)

وبالتالي قد يلجأ الأديب ليعبر عن انفعاله بطريقة مباشرة لإحساسه الداخلي ولهذا فالذاتية هي الصورة المعبرة بما تحمله من أشكال وصور جسدها الأديب في أثره الفني متوافقة مع إحساسه وشعوره، ليوصلها إلى المتلقي عند قراءة النص الأدبي الذي يحاول به حدوثه بحيث يتأثر تأثيراً مباشراً.(3)

ولهذا نجد من الشعراء من يُؤثر التجربة الذاتية على غيرها وهذا ما يسمى بـ (الشعر الذاتي) وفيه مطولة امرئ القيس، إذ تعدُّ لوحاته الفنية وصفاً لحوادث حقيقية كثيرة، وموضوعات متنوعة، لها تجارب عبّر عنها الشاعر بما يعانيه في عالم نفسه وقلبه، فالقصيدة من الشعر الغنائي غلبت عليها النزعة الوجدانية على وصف الطلول، والليل لأن ذلك الوصف تعبير عن همّ يضجُّ في القلب وألم يُضرم الأحشاء كقوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوّى بين الدّخول فحومَلِ

إلى أن يقول

ألا رُبّ يومٍ لك من هنَّ البيض صَالحٍ ولا سيمّا يومٍ بـــــدارةِ جُلجُلِ

1- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة والثقافة، بيروت، لبنان، 1973م، ص 75.

2- السابق نفسه ص 75.

3- انظر المعادل الموضوعي المعنى في قلب الشاعر، نهى حسين كندوح، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العددان (3،4)، ص 74.

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

وليل كموج البحر، أرخى سدوله عليَّ بأنـــواع الهـــموم ليبتلي

ووادٍ كجوف العير قفرٍ قطعتهُ به الذئبُ يعوي كالخليع المعيلِّ

وقد اغتدي والطيرُ في وكناتها بمنجرد قـــــيد الأوابد هيكل(1)

فالشاعر يروي مشاهد ومقاطع متعددة، جرى الحوار بها على لسان الشاعر، وما شاركه في ذلك من عوالم الجوامد وغيرها التي عاشها في جوّه المادي القاسي، وحياته القبلية البدوية، وفي نعيمه الحضريّ الثائر على التقاليد والعرف.

ومن أمثلة الشعر الغنائي الذي يصور مواقف تعبر عن حقيقة المشاعر، نونية محمود سامي البارودي التي تمثل مشهداً صادقاً عاشه مواطن أُجبر على النفي حيث في الثالث من ديسمبر سنة 1882م حكمت المحكمة العسكرية المصرية بالإعدام على سبعة من قادة الثورة العرابية أولهم: أحمد عرابي، وثانيهم محمود سامي البارودي، وما لبث الخديوي توفيق أن خفف هذا الحكم، فاستبدل به النفي المؤبد، وقبل فجر اليوم الثامن والعشرين من ديسمبر سنة 1882م أقلّت إحدى السفن الإنجليزية هؤلاء المنفيين ... وفي ذلك اليوم العصيب نظم البارودي هذه القصيدة الخالدة.

وقال يذكر وداعه للوطن، ويشكر صاحباً على صدق وداده:

محا البينُ ما أبقت عيون المها مني فشبتُ ولم أمضِ اللبُّانةَ من سنّي

إلى أن يقول:

ولما وقفنا للـــــــــوداع وأسبلت مدامُعنا فـــــوق التَّرائب كالمزن

أهَبتُ بصبري أن يعـــــود، فعزني وناديت حلمي أن يتوب، فـــلم يُغن

ولـــــم تمض إلاَّ خطرة، ثم أقلعت بنا عن شطوط الحي أجنحةُ السُّفن

فكم مهجةٍ من زخرة الوجد في لظى وكم مقلةٍ من غزرة الدَّمعِ في دَجْنِ(2)

1- ديوان امريء القيس، دار المعارف، القاهرة، ط5، ص 8 وما بعدها.

2- ديوان البارودي، دار الكتب المصرية، ج3، 1942م، ص 3، 7.

إن ما يهمنا من الحديث عن "الذاتية والموضوعية" أو "المعادل الموضوعي" ما هما إلا دالان لمدلول واحد هو التعبير بصورة فنية عن موقف ما أو حادثة معينة أثرت في الأديب لا يصرح بها مباشرة وإنما يلجأ إلى معادلة ذلك الانفعال بفكرة أخرى تؤثر في السامع.[1]

فالصورة الفنية التي نحصل عليها وفق معيار المعادل الموضوعي هي التفاعل بين الحس، والفكر وهنا يكمنُ الفرق بين الذاتية، والمعادل الموضوعي.

ولتبيين ذلك نورد هذا النص لابن العلاَّف (318) هـ

يا هُــر فارقتنا ولـــــم تعُدِ وكنت منـَّـــا بمنزل الولـد

فكيف تنفكُّ عن هوَاك وقد كنت لنا عُدَّة من العــدد

إلى أن يقول:

كـــادوك دهـراً فما وقعت وكــم أفَلتَّ مـــــن كيدهم كيد مجتهد

فـــحين اخفـــرت وانهملت وكا شفت وأسرفـت غير مقتصد

صـــادوك غيظاً عَليك وانتقموا منك وزادوا ومـن يصيد يصدِ

ثـــم شفوا بالـــحديد أنفُسُهم منك ولم يرعووا على أحـــد

فـــلم تزل للحـــــمام مُـــرتصداً حتى سُقيت الحِمام بالـرصد

لم يرحموا صوتك الضعيف كما لم ترث منها لصوتها الغــرد

أذاقــك المـــــوت ربُّهنَّ لما أذقت أفراخـــــــه يداً بيد[2]

كان لأبي بكر هرٌّ يأنس به، وكان يدخل أبراج الحمام التي لجيرانه ويأكل فراخها، وكثر ذلك منه، فأمسكه أربابها فذبحوه، فرثاه بهذه القصيدة سالفة الذكر.

1- انظر المعادل الموضوعي لنهى كندوح، مرجع سابق ص 75.

2- أوردت هذه القصيدة وما تحويه من قصة لابن العلاف، أبوبكر الحسن بن علي أحمد بن بشار بن زياد المعروف بابن العلاف، انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ج2، ص 107، 108.

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

فالنص كما هو واضح يخص (الهر) الذي قتله الجيران غيظاً، إلاَّ أنَّ الشاعر قد استعمل أسلوب التخفي والتمويه، للحديث عن حالة متشابهة، وهي قتل صديقه على يد الخليفة المقتدر ولم يصرح بذلك خوفاً من الخليفة.

نلاحظ "أن الشاعر قد استعمل ما يسمى حديثاً بـ (المعادل الموضوعي) فإن ما حدث لابن المعتز معادل لما حدث للهر".[1]

والحديث يطول، ولكن لا يهمنا من حديث الذاتية والموضوعية سوى توضيح المعنى، ليتسنى لنا بيان ما يقابل الذاتية والموضوعية، وهو البحث في موضوع (المعادل الموضوعي) فالظروف النفسية، والاجتماعية، والسياسية تجعل الأديب يلجأ إلى تجسيد معاناته بطرق غير مباشرة أي أنه يلجأ إلى (الذاتية الموضوعية) وهذا ما يسمى بـ (المعادل الموضوعي) وهنا تكمن المقابلة بين المدلولين.[2]

1- أنظر المعادل الموضوعي لنهى حسن كندوح، مرجع سابق، ص 76.

2- السابق نفسه، ص 76، 77.

المبحث الثاني

المعادل الموضوعي في الشعر العربي الحديث

قبل الحديث عن المعادل الموضوعي في الشعر العربي الحديث، يستهل بنا الحديث أن نتتبع التسلسل التفكيري المنطقي للمعادل الموضوعي، حيث لا شك فيه أن المصطلحات المعروفة لدينا مثل التناص أو المعادل الموضوعي... لها جذور في تراثنا الأدبي، والتي عرفها العرب قديماً ولكن بتسميات أخرى، حيث يقول صاحب كتاب عيار الشعر لابن طباطا العلوي (321هـ) بأن "الشعر من جهة قوله وتلقيه ينهض على جدلية بها يتميز، وإن كانت حاصلة في سائر الأجناس وهي التخيل والتخييل".(1)

وعليه فقد أشار علماء البلاغة إلى هذا المعنى بلفظة الكناية، لأن الكناية وفق تعريفها في اللغة "أن تتكلم بشيء وتريد غيره. وكنى عن الأمر بغيره يكنى كناية وهي مصدر كنيت أو كنوت بكذا أو تركت التصريح به".(2)

وفي الاصطلاح أشار علماء البلاغة في تعريف الكناية فقال صاحب كتاب الصناعتين وهو "أن يكنى عن الشيء ويعرض به ولا يصرح على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء".(3)

وعن السكاكي قوله "الكناية وهي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول: فلان طويل النجاد، لينتقل منه إلى ما هو ملزومه، وهو طول القامة ...".(4)

فالكناية لون من ألوان التعبير البياني نقلاً عن كتاب (نجاة عمار الهمالي) في حديثها عن الصورة الرمزية في الشعر العربي الحديث في قولها عندما يهدي الشاعر طوقاً معطراً(5)، للشاعر والأديب خليفة التليسي حينما يقول في قصيدته المعنونة بعنوان (وقف عليها الحب)

وقف عليها الحبُّ شدَّت قيدنا أم أطلقت للكون فينا مشاعرا

1- انظر المعادل الموضوعي، لنهى حسن كندوح، مرجع سابق، ص 76.

2- انظر لسان العرب لابن منظور، دار الجبل، بيروت، لبنان، م5، 1988م، ص 306.

3- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، ص 407.

4- انظر مفتاح العلوم للإمام أبي يعقوب السكاكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م، ص 402.

5- انظر المجلس الثقافي العام، طرابلس 2008م، ص 403، 404.

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

إلى أن يقول:

للهادمين قيودها والرَّافعين بُنودهـــا والناشرين بشائرا

للَّزارعين حقولها ومروجها والناسجين لها رداءً فَاخَرا[1]

فهو كناية عن محرري البلاد، ورافعي راياتها، أما الغارسون علومهم، فهو كناية عن ناشري العلم وشيوخها ركبوا الأمور جليلة كناية عن المجاهدين وأولي الرأي والحكمة.

وكذلك من ألوان التعبير البياني، الصورة الرمزية، ندرس من خلالها موضوع التصوير الرمزي في قصيدة غيث الصغير.

حيث كانت خطة اقتلاع الشعب العربي من ليبيا تعتمد على حرب الإبادة والمحاكم الصورية، والمعتقلات وتشريد السكان وإعادة تكوين الأطفال الأيتام في الملاجئ _ هذا ما قدم له الأستاذ _ صالح مسعود بويصير في حديثه عن التصوير التاريخي في قصيدة غيث الصغير.

ويزيد قائلاً "ليس أحلى ولا أروع عندما يمتزج الأدب بالتاريخ، فيصبح بذلك منفذاً من منافذ الوطنية، وذخراً من ذخائر المقاومة".[2]

ولهذا استطاع شاعر الوطنية أحمد رفيق المهدوي أن يمثل حالة الشعب الليبي في أيام الجهاد الغير المتكافئ، والسجون، والمعتقلات ونكباتها في البريقة والعقيلة والجوش وغيرها، فالشاعر هنا يصوّر حالة نفسية لأكثر من أقاموا فيها، إنها ذكريات لا تنسى صورَّها الشاعر في صورة رسمها في طفل اسمه (غيث الصغير) يصبح غيث هو النموذج والمثال، وليس مجرد حالة فردية أو استثناء لا يتكرر.

فهذه القصيدة تصلح أن تكون بـ "معادل موضوعي" لحالة أراد الأديب عدم الإفصاح بصراحة وكنّى عن محاربته للاستعمار الجاثم على أرضه باستعمال التمويه، باختيار قصيدة عنونها بعنوان (غيث الصغير) ليعبّر عن مساوئ الاستعمار وغرس الكراهية في الأجيال اللاحقة للمستعمر البغيض وعدم إغرائهم بالمال لبيع الوطن فيقول أحمد رفيق:

هو في الملجأ من دون اليتامى دائم الصمت وقاراً واحتشامـــا

واضح الجد قليلاً مـــــا يُرى ضاحكاً إلا إذا استحيا ابتساما

نافذ اللحظ تراه ناظـــــــرا نظرة الأجدل يرتاد الحمامـــا

1- ديوان خليفة التليسي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1989م، ص 18، 22.

2- مهرجان رفيق الأدبي، محمد دغيم، منشورات جامعة قاريونس، ط1، 1993م، ص 59.

هو في الملجأ أذكى طـــالب بزّهم حفظاً وفهماً وانتظامـــا

هو رأس القوم رأياً وهـــدًى شيخهم عقلاً وإن كان غُلامـا

وإذا الجـــد مع العزم التقى جعلا للمرء في الناس مقامـــا

وإذا نـــفس الفتى شبت على عزةٍ زاحمَ للمـــجد وسامى[1]

ويعلق على ذلك صالح بويصير بقوله: "وأمام هذه النفس السامية التي تتخطى بشموخها حضيض الواقع المنهار وقيود الذل والأسر والقيم ينحني الشاعر بقامته ليسأل الولد الصغير، ليسمع منه قصة كل طفل، قصة أيتام ليبيا".[2]

جئت إعجـــاباً به، أسأله فتبسمت وأهديت السلاما

هب كالشبل نشاطاً واقفـــا وقفة الجندي للقائد قامـــا

أطرق الرأس، وحيّاً خافضا طرفه مني حياءً واحتراما

ويبدأ غيث يروي قصته بقوله:

كان مسعود أبي في قومـــه سيد الأعراب معروفاً همامـا

فارس الخيل غياث المحتمي مكرم الضيف كفيلاً للأيامى

بارك الله لـــــه في ثروة تملأ الوادي ثغاء وبغامـا...

هذه هي الصورة التي يقدمها رفيق، عندما يصف لنا ثروة والد غيث كما يحكي عنها غيث نفسه. وتستمر الملحمة حينما ينقل لنا رفيق، بل ينقل للأجيال المتابعة صورة حية للغزاة المستعمرين الذين خربوا اقتصادنا ودمروا ثرواتنا ونهبوا أقواتنا وشردوا شعبنا.

ثـــم لما غلبت شيمته قعد السعد وهول الخطب قاما

بينما الحي رقود إذ علت صرخة تنذر بالشر النيامـــا

1- شاعر الوطن الكبير (الفترة الثالثة)، ط1، وزارة العمل الاجتماعية بالمملكة الليبية، ص 9، 16.

2- مهرجان رفيق المهدوي، مرجع سابق، ص 65.

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

إلى أن قال:

ورأى الأبطال أن الموت لا شك فيه فتلقوه زؤامـــــا
قيدوا أرجلهم صبراً فمـــا حلها غير رصاص يترامى

.....

جاء يستعرضهم ممتحـــناً وهو يختار غلاماً فغلامـــــا
ما رأى فيهم كغيث إذ رأى من ذكاء عجباً فاق الأنامـــا
خاطب الطفل ملياً فـرأى رابط الجأش فصيحاً لاكها ما
وحباه بنقود قـــــائلا اعط في انفاقها النفس مراما...
قال: مـا تصنع يا غيث بها قل لي الحق ولا تخش ملامـــا...
قال: غيث وبدا الجـــد على وجهه يشبه ليثاً أوقطامـــــــا
إن لي ثأراً إذا أدركتـــــه لا أبالي بعد أن ذقت حمامـــا

....

ورأى أتباعه مـــــا غاظهم فتعاطوا نظرة، كانت كلامـــا
لجأوا ظلماً، وعـــــدوانا إلى أفظع الأفعال، إذ كانوا لئامـــا
عادة النذل اغتيال ! ولـــــذا جعلوا سرا له السم طعامـا ![1]
ما جرى في جوفه، حتى سرى في وتين القلب كالنار اضطراما
خر للمـــوت، صريعاً، يلتوي يطلب الماء، فيبدون ابتسامـــا
لم يزل، ينفث من فيه دمـــاً أسوداً من كبد، ذابت رمامـــا
يلفظ الآخـــــر من أنفاسه وينادي الانتقاما !! الانتقاما !!
راح مظلوماً، شهيداً، جاعـلاً لفظة التوحيد لله ختامـــا[2]

1- شاعر الوطن الكبير، مصدر سابق، ص 9، 16.
2- السابق نفسه، ص 16.

هذه الصور التاريخية التي قدَّمها لنا الشاعر رفيق من قصة البطل الصغير غيث الصغير، من معاناة الشعب الليبي وكفاحه الدؤوب ضد الاستعمار الإيطالي، ولم يرض بالظلم، بل جاهد وكافح حتى حرر بلاده من براثن ووحشية المستعمر البغيض، قدمها لنا الشاعر في صورة حية، تحدث بها على لسان طفل صغير، عانى الويلات وفقد الأحبة، فانتهى بتجرعه للسم الذي سرى في قلبه كالنار اضطراما، ولكنه مات شهيداً موحداً لله ختاما.

ونقلاً عن موضوع المعادل الموضوعي للدكتورة سميرة عمار الرباعي بقولها:

ويمكن للقارئ أن يلحظ ذلك في النصوص التي بين يديه، فيعرف أنها (معادل موضوعي) لحالة أراد الأديب عدم الإفصاح عنها، فاستعمله الأديب كحيلة للتمويه،... ومنها مثلاً قصيدة الشاعر أحمد الشارف الموسومة بـ (جيل وجيل) وهي عبارة عن رسالة شعرية من والد إلى ولده يقول فيها[1]:

بُنيّ أريد وأنت تـــــــــريد وبيني وبينك شأو بـــعيد
وإني خُلقت لعصر مـــضى وأنت خُلقت لعصر جـديدْ
طعامي كما اشهي واحـــــدُ وأنت الذي تشتهي أن يزيد
تحب الملاعق فوق الصحون وتأبى الأصابع فوق الثريد
وها أنت تقفز في المشي قفزاً وها أنا أمشي رويداً رويـد
وما كنت أعـرف حلق اللحى وأنت ترى الحلق أمرًا أكيد
كـــــــلانا بما عنده قانع فمني القديم وفيك الجـديد

إلى أن يقول:

بني استقـــــــم يا بنيّ استقم لتأمن من هول يوم الـوعيد
وكـــــن لي على جانب لين ولاتك لي مقمعا من حـــديد
وخذ ما كفى من شؤون الحياة وأجمل إذا ما طلبت المـزيد
وجـــــــودك مني وقد نلته فهل أنت تنكر فضل الوجود
فكم جلب الشكر من نعمـــة وكم ذهبت نعمة بالجحـــود
وعنوان فضلك لا تنســـــــه كفاك من النظم بيت القصيد[2]

1- المعادل الموضوعي مفاهيم وتطبيق، سميرة عمار الرباعي، كلية الآداب الجميل، جامعة صبراته، العدد التاسع، يوليو 2020م، ص 258.
2_ أحمد الشارف، دراسة وديوان، علي مصطفى المصراتي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط3، 1430هـ، 2000م، ص 103.

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

قصيدة أحمد الشارف تصلح لدراسة أحد مقاييس النقد الأدبي الحديث ألا وهو (المعادل الموضوعي) من خلال هروب الشاعر من العاطفة وإنكار إحساسه بالعجز والشيخوخة، بحيث يبدو للوهلة الأولى أنه ينصح ابنه، فلبس الشاعر القناع – قناع نصيحة الابن – وأخفى وراءه الحقيقة وجعل من ابنه (معادلاً موضوعياً) صبّ عليه كل ما يشعر به حقيقة، ويمكن ملاحظة ذلك من بعض الألفاظ والعبارات التي استخدمها الشاعر في أبياته، وهي عبارات ذات خصائص مميزة في النص.(1)

ومن خلال الإشارات السابقة نخلص إلى أن المعادل الموضوعي Objectiv Correlative مصطلح نقدي يشير إلى الأداة الرمزية التي يستخدمها النقاد والمبدعون للتعبير عن بعض المفاهيم المجردة، ويوظفها الشعراء لإبعاد ذواتهم وأحاسيسهم عن العمل الإبداعي يوفر مصطلح المعادل الموضوعي عنواناً للطريقة التي يقدم بها الفن مجموعة من التمثيلات التي قد لا يصرح بالعاطفة فيها، لكنها – التمثيلات – تعبر عن هذه العواطف، وهو "معادل خارجي لحالة ذهنية داخلية يتمثلها الشاعر خاصه انطلاقاً من نظرية إليوت".(2)

والتعليق على ما سبق فإن المعادل الموضوعي مصطلح حديث في النقد عُرف مع توماس إليوت(3)، الشاعر – الناقد، وكوَّن الجزء الأساسي من آرائه النقدية، وانتهى فيما بعد إلى كونه أداة نظرية، اعتمدت معيارًا للشعر. وبالإضافة إلى ذلك فإن جوهر المصطلح يشير إلى أن "الطريقة الوحيدة للتعبير عن الانفعال في صورة فنية، هي العثور على معادل موضوعي أي العثور على "مجموعة أشياء، على موقف، على سلسلة من الأحداث تكون هي الصيغة الفنية التي تُوضع فيها تلك العاطفة. حتى إذا أعطيت الوقائع الخارجية التي لا بدَّ أن تنتهي خلال التجربة الحسّية استثيرت العاطفة على التّو".(4)

ويضيف صاحب المقال بأن دراسة المعادل الموضوعي مصطلحاً ومفهوماً، يدفعنا إلى تعرف مكوناته ومقوماته التي بُني عليها، والتي نلخصها بما يلي:

1_ المعادل الموضوعي مفاهيم وتطبيق، مرجع سابق، ص 259.

2_ نقلاً عن: مجلة الأثر، المعادل الموضوعي في النقد الأنجلو، أمريكي الجديد، دراسة في المصطلح والمفهوم والمرجعيات، أ.حسن دواس، طالب دكتوراه، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر، العدد 26، سبتمبر 2016، ص 48.

3_ إليوت (ت.س توماس سترنز) 1888 – 1965، شاعر وناقد ومسرحي، أمريكي الأصل، حصل على الجنسية البريطانية عام 1927م، ونال عام 1947م وسام الاستحقاق وجائزة نوبل، انظر: ت.س إليوت الشاعر الناقد للمؤلف ماتيس ترجمة إحسان عباس، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، 1965، ص 25- 33.

4- نقلاً عن مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 87، ج2، المعادل الموضوعي في مدائح أبي تمام الطائي، فوزية علي زوباري، ص 478، 479.

1- الفكرة الأساسية التي بني عليها مفهوم المعادل الموضوعي عند إليوت هي أن العمل الفني خلق ناتج عن تحويل انفعال الشاعر، فالانفعال المستعاد في السكينة هو معادلة دقيقة لأنه ليس انفعالاً ولا تذكرًا... إنه تركيز وشيء جديد ينتج عن التركيز لعدد كبير من التجارب التي لا تبدو للشخص العملي الفعّال تجارب على الإطلاق.

2- مشاعر الشاعر هي، قبل كل شيء، المعنى الأساسي الذي يلتقط من أفكاره وصوره، فالشعر الرفيع يصاغ من المشاعر وحدها ... وفكر الشاعر حيز يلتقط ويخزّن ما لا يحصر من المشاعر والعبارات والصور التي تبقى هناك إلى أن تلتقي معاً جميع العناصر التي يمكن أن تتفاعل لتكون مركباً شعرياً جديداً.

3- إن انفعال الفن ليس شخصياً، أي إنه يتعلق بالقصيدة لا بالشاعر، وهو انفعال لا يوصف بالمصطلحات العقلية والرمزية، وإنما يتُرجم إلى موقف أو عمل ملموس يثير استجابة انفعالية والفنان الحق هو الذي يعبّر عن شخصيته في القصيدة تعبيراً غير مباشر.

4- إن اهتمام الشاعر لا ينصرف إلى الفكر بمقدار ما ينصرف نحو إيجاد المعادل العاطفي للفكر، وإن المهمة الأساسية للشعر عاطفية لا عقلية، وإن عواطف الشاعر ليست مهمة في ذاتها، لأن مركز القيمة لا يكون في المشاعر نفسها بل في الأنموذج الذي يصنعه من مشاعره.

ونخلص من ذلك بأن:

طبيعة الشعر إذن تتكون من تفاعل الذات والموضوع

فالذات، الطرف الأول: منبع الفكر والعاطفة} الناتج = الصورة الشعرية

والموضوع، الطرف الثاني: منابع الأحداث والأشياء

والشاعر المبدع يعرف كيف يتخذ لعناصر ذاته العاطفية والفكرية معادلاً من عناصر الأحداث والأشياء وإليوت يؤمن بأن "الشعر الخالد إنما هو دائماً تصوير للفكر والشعور بتقرير الأحداث في العمل الإنساني أو الأشياء في العالم الخارجي.(1)

1- ينظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مرجع سابق، ص 479، 480، 481.

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

المبحث الثالث

المعادل الموضوعي في شعر أبي القاسم الشابي

دراسة تطبيقية

لعل الحديث عن المعادل الموضوعي في شعر الشابي يقودنا إلى ثقافته الأدبية العربية الواسعة، وما قرأه من ترجمات عن الآداب الغربية التي تأثر بها، كل ذلك ساهم في "تفتح قرائحه الشعرية في سن مبكرة ... وكان يساهم في شعره بتلك الفترة في مساندة حركاته التجديدية، وبعث حركة المسلمين، وعمل على مناصرة حركة تحرير المرأة، ودعوته إلى التجديد في الأدب من خلال الخيال الشعري عند العرب".(1)

وبهذا "ليست العملية الشعرية عند الشابي عملية فنية مقصودة لذاتها، بل هي وسيلة من الوسائل التي يمكن أن تساهم في إيصال مبادئه الثورية إلى مجتمعه، فهو يريد لأمته أن تهب من رقدتها، يريد أن يشهد نهاية الظلم في بلاده، فكان يتغنى بالحياة وبجمالها من أجل ترغيب الآخرين في أن يتوجهوا إلى ذواتهم أولاً فيصلحون من أنفسهم، ثم يتأملون الطبيعة التي بلغت أنظارهم إلى جمالاتها، ليدركوا أهمية الحياة وبالتالي أهمية الحرية".(2)

عاش الشابي هذه الحياة المليئة بالظروف الاجتماعية، والثقافية، والسياسية، ولكن رغم ذلك كله فقد رمى بسهمه في جميع الجوانب وخصوصاً الحياة السياسية التي عانى منها كثيراً حزناً على بلده، وشعبه، وشعوبه العربية، فقد فاضت قريحته بأشعاره المتنوعة ضد المستعمر البغيض الذي دنس الأرض ومنع الحريات فأراد أن يوصل رسائله الوطنية من خلال إيقاظ الشعب من براثن الاستعمار البغيض بصورة غير مباشرة وهو يهتف صارخاً بقصيدته المشهورة بعنوان (إرادة الحياة) مخاطباً الطبيعة فيقول:

إذا الشعب يومـــاً أراد الحياة ... فـــلا بُدَّ أن يستجيب القدر

ولا بُـــــــدَّ لليل أن ينجلي ... ولا بُـــــدَّ للقيد أن ينكسر

ومـــن لم يعـانقه شوق الحياة ... تبخر في جوّهـــا، واندثـــر

فـــــويلُ لمن لم تَشُقهُ الحيـاةُ ... مـن صفعة العـــــدم المنتصر

كـــــذلك قَالتْ ليَ الكائنات ... وحـــدّثني رُوحُها المستتر

1- المقدمة في ديوان أبي القاسم الشابي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص6.

2- المصدر السابق، ص 8.

ودمـــــدمت الرّيح بين الفجاج وفوق الجبال وتحتَ الشّجر
إذا مـــــا طمحت إلى غايةٍ رَكبتُ المنى، ونسيت الحدر
ولـــــم أتجنب وُعُورَ الشّعاب ولا كبَّة اللهب المستـــــعر
ومـــن لا يحب صُعُودَ الجبال يَعشْ أبدَ الدَّهر بين الحـفر
فعجّت بقلبي دمـــاء الشَّباب وضجّـت بصدري رياحُ أُخرْ
وأطرقت أصغي لقصف الرُّعود وعزف الرّياح ووقع المـطر
وقالت ليَ الأرض – لما سألت أيا أمُّ هـــل تكرهين البشر؟
أبارك في الناسّ أهل الطَّمـوح ومـــن يستلذّ ركوب الخطر

إلى أن يقول في نهاية القصيدة:

إذا طَمـــــحتْ للحياة النّفوس فلا بُدَّ أن يستجيب القدر! (1)

ديوان الشابي به قصائد كثيرة تعمق وتجسد رؤيته المأساوية للعالم العربي، ورؤيته هذه لا تقبل أنصاف الحلول فإما الرضوخ والقبول بواقع الأمر، وإما الثورة على هذا الواقع المؤلم القاهر، ولهذا تعدُّ قصيدته السابقة الذكر واحدة من أخلد شعره التي تجسد المعادلة الموضوعية، فإما القبول وإما الثورة على القهر والعبودية والتخلص من براثن المستعمر البغيض.

من خلال دراسة قصيدته التي تمثل كلمات مشاعره المليئة بالآهات والحسرات التي خلفتها الأوضاع السياسية المؤلمة في وطنه وعالمه العربي، فكان ذلك نتيجة للسعي وراء معادل موضوعي يترجم أفكاره بعيداً عن سلطة الرقيب، فلو تتبعنا ديوانه وجدنا الكثير من نصوصه المليئة بالمعادلات الموضوعية التي نظمها في أشعاره، وخاصة في قصيدتــه (إرادة الحياة) حينما استخدم الطبيعة بستارها وصورها المختلفة. فلو تأملنا بعض أبيات هذه القصيدة يوحي إلينا أنه يتعامل مع عناصر الطبيعة المختلفة، ويكمن ذلك جلياً في التكرار الذي يؤكد إصراره الدؤوب لنيل الحرية وطرد المستعمر من بلاده، ففي تعبيره المتكرر في أشطر بيته بكلمة فلا بد أن يستجيب القدر – ولا بد لليل أن ينجلي – ولا بد للقيد أن ينكسر...

1- ديوان أبي القاسم الشابي، أغاني الحياة، دار صادر بيروت، ط1، 1991، ص 199.

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

هذا كله تكرار وتأكيد، فقد استخدم في بداية حديثه عن القدرة بقضاء الله وقدره، وأن الليل سوف ينجلي وهو يشير إلى ليل الاستعمار وقيده للشعوب، وأن الحياة لها مصاعب وهموم، وقد مثَّل لذلك بنوم الشعب ورضوخه للاستعمار، مثَّل لذلك بالكائنات المدفونة تحت الأرض، فهذا خيال واسع ورائع استخدمه الشاعر لمناهضة الاستعمار. وما زال الشاعر باستعماله لستار الطبيعة، فجاء ببيته التالي بقوله:

ودمدمت الريح بين الفجاج وفوق الجبال وتحت الشجر

وهنا يعني الشاعر الغضب، فقد استعمل الريح بين الطريق الواسع بين جبلين بالقوة عند اندفاعها، فهذه الريح في سرعتها عندما يلمُّ بها الغضب تسير في طرق متنوعة بقوة بين الفجاج وفوق الجبال وتحت الشجر. وكأن هذه السرعة كناية على إيقاظ الشعوب من غفلتها، فكأنه يقول للشعب عليك بالثورة في جميع المجالات وهذا واضح في تعبيره بالريح في سرعتها وثورتها العاتية.

وبهذا فإن الشابي قد استعمل رموزاً عمد إليها وهي رموز طبيعية، بذلك نستطيع أن نقول أن الرمز هو الأخ الشقيق للمعادل الموضوعي.

يقول الشابي في قصيدته بعنوان "رسالة النبي المجهول"

أيها الشعب ليتني كنتُ حـــطّاباً فـــــأهوي على الجذوع بفأسي

أنت رُوح غبيّةٌ، تكـــــره النّورَ وتقضي الـــدهور في ليل ملس

أنت لا تدرك الحقائق إن طافت حـــــواليك دون مسّ وَحَبس

إنني ذاهـب إلى الغاب يا شعبي لأقضي الحياة وحـــدي بيأسي

إنني ذاهـــب إلى الغاب، علّي في صميم الغابات أدفن بؤسي

ثم أنساك ما استطعت فمـا أنت بأهـــــــل لخمرتي ولكأسي

سوف أتلو على الطيور أناشيدي وأفـــضي لها بأشواق نفسي[1]

وقد أشارت نوال سي صابر، وصدار نور الدين في هذا البحث في تعليقهما على هذه القصيدة إلى أن المكونات الحقيقية لهذه المأساة واقع بلاده المليء بالألم من جراء واقعه القائم المشحون بالفقر والقهر، مجتمع رضخ للاستعمار والذل والعيش على ثقافة التخلف والجهل،... فلا أمل في التغيير على الإطلاق، وقد أحس

1- ديوان أبي القاسم الشابي، مصدر سابق، ص 124، 125.

الشابي قرب نهايته، وأنه سيغادر هذا الوجود، دون الظفر بمعركة مع الحياة والمجتمع، وأنه سيترك شعبه مكبلاً بسلاسل التقاليد القديمة التي أفسدت روحه.(1)

وقد عبَّر في قصيدته السابقة الذكر عن الذاتية الموضوعية لحياته النضالية ومعاناته طيلة كفاحه مع شعبه وصموده ضد نيل الاستعمار وغدره لشعبه. فهذه الذاتية تمثل المعادل الموضوعي في مناجاته لسعيه ومطالبته لهم مستأثراً خروجه للطبيعة وإلى الغاب ليعبر عن ذلك بمأساته المتكررة.

ولهذا نرى في "وصف الشابي للطبيعة، وصفاً خارجاً عن المألوف، لأنه لم يكن موجهاً لمظاهر الطبيعة، إنما جعل الطبيعة معادلاً موضوعياً لتعبر بالنيابة عن آلامه ومعاناته، إنها أدوات سخرَّها الشابي بطريقة فنية فائقة للتعبير عن رؤيته للعالم".(2)

والسير في المعادل الموضوعي في شعره يجرنا إلى الحديث عن الخيال الشعري، حيث حصر الشاعر رأيه في الخيال الشعري بثلاث نقاط هي:

الأولى: أن الخيال ضروري للإنسان لا بد منه، ولا غنية عنه ... لأن الخيال نشأ في النفس الإنسانية بحكم هذا العالم الذي عاش فيه الإنسان.

الثانية: أن الإنسان الأول حينما كان يستعمل الخيال في جمله وتراكيبه، لم يكن يفهم منه هاته المعاني الثانوية، التي يفهمها منه نحن ونسميها (المجاز).

الثالثة: أن الخيال ينقسم إلى قسمين: قسم اتخذه الإنسان ليتفهم به مظاهر الكون وتعابير الحياة، وقسم اتخذه لإظهار ما في نفسه من معنى، لا يفصح عنه الكلام المألوف، ومن هذا القسم الثاني تولّد قسم آخر ولدته الحضارة في النفوس أو ارتقاء الإنسان نوعاً ما عمَّا كان عليه وهذا القسم الآخر هو الخيال اللفظي الذي يراد منه تجميل العبارة وتزويقها ليس غير.

والقسم الأول هو أقدم القسمين في نظري نشوءاً في النفس، لأن الإنسان أخذ يتعرف ما حوله حتى إذا ما جاشت بقلبه المعاني أخذ يعبر عنها بالألفاظ والتراكيب ....

1- شعر أبي القاسم الشابي، دلالة الرؤية والأداة، مقاربة بنيوية تكوينية، نوال سي صاير، صدار نور الدين، جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر، مجلة أكاديمية محكمة بالدراسات والبحوث النقدية والأدبية، مج 9، العدد 1، 2020، ص 120.

2- شعر أبي القاسم الشابي، دلالة الرؤية والأداة، مرجع سابق، ص 131، 132.

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

وتضيف بقولها: "إن الإنسان شاعر بطبعه، في جبلته يكمن الشعر، وفي روحه يترنَّم البينان".[1]

وحقيقة الأمر من يطلع على شعر الشابي يجده شعراً رومانسياً يتحقق فيه علاقات الريَّادة والتجديد، ويظهر فيه بوضوح تأثره بشعر المهجر ... ولأن الشعر عند الشابي تجربة، وبوح بما في الداخل من أحاسيس وعواطف، وخواطر، فإننا نفتقر في قصائده إلى جو المناسبات والأغراض التي عرفت عن شعراء النهضة أو شعراء المدرسة الاتباعية الجديدة. أو حتى عند الشعراء القدامى في عصر الأدب. فهو ما إن يمر بخاطر حزين أو كئيب حتى يسارع إلى نظم قصيدة في هذا، مثل قصيدته المعنونة بـ (الكآبة المجهولة).[2]

أنا كئيب،

أنا غريب،

كآبتي خـــــالفت نظائرها غريبة في عوالم الـــحزن

كآبتي فكرةٌ مـــــــغردّةٌ مجهولةُ من مسامع الزَّمـن

لكنني قـــد سمعتُ رنتها بمهجتي، في شبابي الثمِـل

سمعتها، فانصرفتُ مُكتئباً أشدُو بِحزني، كطائر الجبلِ

إلى أن يقول:

كآبتي شعـــــلةُ مؤججةُ تحت رمـــاد الكون تستعر

سيعلم الكـون ما حقيقتها ويَّطلعُ الفجر يـوم تنفـــجر

كآبة الناس شعلــة، ومتى مرّت ليالٍ خبت في الأمــد

أما اكتئابي فلوعةٌ سكنت رُوحي، وتبقى بها إلى الأبد[3]

فهو يشكو الحزن والكآبة، فيراها كآبة تفوق كل وصف وتتجاوز كل حدّ.

1- أبوالقاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب، قدم له وعلق عليه أحمد حسن يسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص 23، 26.

2- مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، إبراهيم خليل، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2003، ص 174.

3- الديوان، مصدر سابق، ص 26.

وفي مداخلة لعبد الوهاب البياتي في حديثه عن المعادل الموضوعي نقلاً عن كتاب الرمز والقناع قوله: "أن القناع يسعى إلى أن ينأى بشعره عن الغنائية والرومانسية التي تردى أكثر الشعر العرب فيها ويهدف إلى كسر حدة التدفق في عواطفه وانفعالاته المباشرة التي تعد شكل القصيدة ومضمونها بل هي الوسيلة للخلق الفني المستقل".

ويضيف بأن "(تقنية القناع) تهدف إلى تحقيق المعادل الموضوعي وهي وجه من أوجه التوظيف التي يتحقق فيها، ولكنه ليس مقصوراً عليها، بحيث لا يمكن تحقيقه إلاّ من خلالها، بل يمكن تحقيق المعادل الموضوعي" بأساليب فنية أخرى تجعل العواطف موضوعية، بخلق عناصر وأحداث ومواقف مادية لها بأي كيفية كانت، في حين تتطلب "تقنية القناع" نوعاً من التفاعل بين الشاعر وشخصيته، يقوم على الأخذ والعطاء المتبادل، وهو ما لا يشترط في المعادل الموضوعي.(1)

وبهذا فالصورة التمهيدية السابقة ترشدنا إلى الذاتية الموضوعية، أو المعادل الموضوعي الذي يسهل علينا بوضوح دراسة شعر الشابي، وتطوره في عدة قصائد التي لا يسمح المجال بدراستها كاملة في هذا البحث المتواضع، ولكن لا بأس بأن نسلط الضوء أكثر في اختيار بعض من قصائده، التي تخدم العناصر التعبيرية التي تقودنا إلى محور التشكيل الموضوعاتي، لشعر الشابي، لما له من أهمية في تجلية البنية العميقة، أو المعنى الكلي لقصائده الشعرية.

ولو تطرقنا قليلاً إلى بعض التعليقات لكي تتضح الصورة أكثر وضوحاً من خلال دراسة الشابي الذي خلَّف تراثاً عظيماً، ودراسات كان لها الأثر العميق من خلال معاصريه، فنقلاً عن كتاب الشعر العربي الحديث من خلال الحديث عن بدر شاكر السباب بالتعرض لديوانه قوله: أن السياب عندما اكتشف الصورة الشعرية حوَّل قصائده إلى تراكم صوري، وحين اكتشف الرمز الأسطوري، مزج الأساطير وحشا قصائده بها، وما هذا التراكم في الصوّر إلاّ (معادلات موضوعية) لأفكار يريد أن يعبر عنها. وهذه الأفكار على خطورتها في تلك المرحلة السياسية الحرجة التي كان يمر بها، تحتاج إلى رمز وأسطورة ليسهل التعبير عنها. فأخفى هذا الرمز الأسطوري عمقاً على شعره وأغناه.(2)

وبالتالي لو رجعنا إلى إليوت حيث حدّد معنى المعادل الموضوعي بقوله:

1- الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث، محمد علي كندي، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 2003، ص 28.

2- ينظر الشعر العربي الحديث، قصة محاكاة، سناء عيتاني، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2017، ص 214.

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

إنّه سلسة من الأهداف وموقف معين، يتم تحريك هذه العاطفة حالما يقدّم الشاعر الحقائق الخارجية التي ينبغي أن تنتهي بتجربة حسّية، هذا بالإضافة إلى التضمينات الأسطورية.(1)

لعل هذا التوضيح يكرس حياة الشابي الشعرية، وارتباطه الوثيق بهذه المفاهيم وجدوتها في قصائده الشعرية، حيث لوحظت هذه الرموز والأساطير التي حاول الشابي أن يستعملها في ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية صعبة مرت بحياته التي لم تدم طويلاً فلو رجعنا إلى قصيدة (الأبد الصغير) بقوله:

يا قلبُ ! كم فيكَ من دُنيا محـــــجَّبةٍ كـــأنها، حين يبدو فجرها "إرمُ"
يا قلب ! كم فيك مـــن كونٍ، قد انَّقدتْ فيه الشموسُ وعاشت فوقه الأمم
يا قلب ! كـــــم فيك من أفُـــقٍ تنمقه كـــــــواكبُ تتجلىَّ، ثمَّ تنعدِمُ
يا قلب ! كـــم فيك من غاب ومن جبل تدْوِي به الرِّيحُ أو تسمو به القمـم
يا قلب ! كم فيك من كهف قد انبجست فيه الجـــداول تجري ما لها لُجُمُ
تمشي ..، فتحملُ غُصناً مـزُهراً نضراً أو وردة لم تشوه حسنها قـــــدم
أو نحلةً جـــــــــرَّها التَّيارُ مندفعاً إلى البحـــار، تُغنى فوقها الـديم
أو طائراً ساحـــــــراً ميتاً قد انفجرت في مُقْلتيهِ جـــــــراح جمة ودم
يا قلب ! إنك كون، مـــدهش عجب إن يُسْألِ الناس عـن آفاقه يجمؤا

إلى أن يقول:

تبلُو الحياة فتبليها وتـــــــــخلعُها وتستجدُّ حياةً، مـــــــا لها قدم
وأنت وأنت: شباب خـــــالد، نظر مثلُ الطبيعة: لا شيب ولا هـرم(2)

هذه الذاتية الموضوعية التي يتحدث بها الشابي عن القلب الذي عانى منه كثيراً ولكنه يتحدث عن الأنا والآخر ويدمج ذلك بالطبيعة التي شغلت شعره وحديثه، وهذا طبع الرومانسيين ففي عجز البيت الأول يصور بأن قلبه فيه دنيا محجبة ببزوغ فجرها الذي يمثل مدينة قديمة ورد ذكرها في القرآن الكريم في سورة الفجر وهي (إرم ذات العماد) لما لها من جمال وبهاء وكذلك في تصوره للقلب بما يجعله كونه فيه الشموس المضيئة ويزيد ذلك بأنه مستقبل لكل الأمم التي عاشت عليه. فهذا التصوير بليغ فالشابي يعاني من مرض القلب ولكن هذا

1_ F.O.MATTHIESSEN, THE AEHIEVEMENT. OFT.S.ELIOT. 3RD EDITION. OXFORD UNIVERSITY PRESS, NEW YORK A MDON, 1958.P150.

2- ديوان أبي القاسم الشابي، مصدر سابق، ص 33.

المرض لم يثنه عن وظيفة القلب الذي ملأ الدنيا بما يحتويه من أفق وكواكب واستغرق كثيراً في كونه غاب وجبل ورياح تدوي وتسمو بالقمم، فالقلب يعني كل شيء عند الشابي من الحياة التي يأمل أن يعيشها فهو يرى الحياة بالتفاؤل الذي نعته بأنه غصن مزهر نظر أو شبهه بالنملة التي جرها التيار أو الطائر الساحر الذي انفجرت في مقلتيه جراح جمة ودم. ويأتي بالجمع في كل التشبيهات السابقة بأنه كون مدهش فالشابي حوّل قلبه إلى كائن عاقل يخصه بالنداء والمناجاة بخواطر نفسية قد ضاقت به أوصاف المرض والحزن والخوف، وقد خلط ذلك بسيطرة الطبيعة في مناجاته للقلب الحزين الملوع. فجعل القلب أكبر شيء في الوجود يحوي الكون بكامله فمثّل عنده شريان الحياة بجميع احتياجاتها ومرفقاتها وهذا ناتج عن تأثير المرض الذي عاناه طيلة حياته القصيرة التي عبر عنها بقلبه الحزين.

وفي قصيدته المعنونة بـ (مناجاة عصفور) يقول:

يا أيُّهـا الشَّادي المغّردُ ههنا ثَمِلاً بغبطة قلبه المـــسرور
متنقلاً بين الخمـــائل، تالياً وحـــي الرَّبيع السَّاحر المسْحُور
غــردّ في تلك السُّهول زنابق تَرْنُو إليك بناظر منظـــــور
غرد ففي قلبي إليك مـــودّة لَكِنْ موَّدةُ طائر مـــــأسور
رتل على سمع الرَّبيع نشيده واصدح بفيض فؤادك المسجور
وانشد أناشيد الجمال، فإنَّها رُوح الوُجود، وسلوةُ المـــقهور
أنا طائر، مُتغـــرد، مُترنمُ لكِـــن بصوت كآبتي وزفيري(1)

في هـذه القصـيدة صـوَّر الشـابي الذاتيـة الموضـوعية أو المعـادل الموضـوعي بلجـوءه للطبيعـة كعادتـه واعتبرهـا ككائن حي عاقل تفنن في مخاطبته ومناجاته وقاسم مآسيه وأفراحه. فهو يناجي عصفوراً مغرداً مرحاً قد حملته الغبطة والسرور سعادة عظيمة كان مصدرها الغاب والخمائل التي يتلو على مسامعها وحي الربيع فقد شبه ذلك بشخص يتلو الوحي وصاحب الوحي هو الربيع الساحر بجماله الفتان. بحيث يجعل الشاعر كل تغريدة متنفساً ووسيلة ينطلق منها لأشجانه، وفي هذا منطلق أمل لذاته وهو يقاسم العصفور فرحه ولكن الشعر يشير إلى

_1 ديوان أبي القاسم الشابي، مصدر سابق، ص 83.

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

عامل مشترك بينهما أنه الأسر فهل هو أسر معنوي أو مادي[1]، فمناجاته هذه كانت تغريدات عن نفس حزينة مليئة بالمتاعب الشاقة التي عاشها الشابي في حياته سرعان ما عادت لتغوص في عذابها وأسرها رغم جمال الطبيعة وحسنها وما بها من سهول وزهور فاخرة فتانة تملأ الأمل في نفس المعجب بها.

فالشاعر يحاول أن ينسى الهموم التي ألمت به رغم مرضه وظروفه الاجتماعية الصعبة التي مرت بحياته. فهو يحاول أن يصل إلى ذاته من خلال الشادي المغرد الثمل بالربيع المخضر ولكن إنه ربيع الأحلام الذي عاشه الشاعر.

وفي خلاصة هذا المبحث نرى أن الشابي قد استطاع بقدرته الأدبية الواسعة، أن يجعل المعادل الموضوعي ممثلاً له في أغراضه الشعرية، فهو شاعر رومانسي، وطني العروبة، أديب مرموق، مطلع وباحث في تاريخه وقضايا أمته العربية معاصراً لها.

وبهذا كانت إبداعاته الشعرية خاصة والأدبية بعامة، بحيث استمد من عالم الطبيعة والأذواق الشعرية والتعبيرية، مما ساعده على الاختفاء وراء شعره بما يصل إليه من معانٍ تؤتي أكلها وتصل إلى غرضها الذي يريده أن يتحقق.

1- ينظر المناجاة في شعر أبي القاسم الشابي لسمية العموري، كلية الآداب واللغات، جامعة أكلي محند وأولحاج، البويرة، الجزائر، 2015، ص25.

الخاتمة:

من خلال دراسة المعادل الموضوعي اتضح أنه من أفضل الوسائل التي يعبر بها الشاعر عن أحاسيسه ومشاعره واتجاهاته بطريقة مأمونة تحفظ عليه نفسه ومكانته وكرامته دون أن يتعرض إلى اللوم والعقاب من أحد وبهذا نخلص إلى:

1_ الذاتية والموضوعية قد يلجأ الأديب إليهما لتجسيد انفعال معين للتعبير عن انفعاله وتعبيره عن أي موضوع سواء أكان سياسياً أو اجتماعياً أو نفسياً بطريقة غير مباشرة تهدف إلى توصيل الهدف المرجو الذي يسعى إليه الأديب.

2_ الذاتية والموضوعية أو المعادل الموضوعي ما هما إلاَّ دالان لمدلول واحد هو التعبير بصورة فنية يستخدمها الأديب عن موقف ما أو حادثة معينة أثرت في الأديب لا يستطيع أن يصرح بها مباشرة.

3_ نستخلص من تعريفات عديدة للأديب إليوت:

الطريقة الوحيدة للتعبير عن العاطفة في شكل فني هي ايجاد سلسة من الأحداث تُشكل الصيغة الكاملة لتلك العاطفة بالذات، بحيث أن تلك العاطفة ستثار فوراً حين تعطى الحقائق الخارجية التي ينبغي أن تنتهي في التجربة الحسية.

4_ استطاع الشابي أن يدرس المفاهيم والأدوات التي صاغها في مسيرته الشعرية بما استعمله من رموز وأساطير حاول أن يستعملها في ظروفه السياسية والاجتماعية والنفسية.

5_ ظهرت الرومانسية في جميع نتاجات الشابي الشعرية وهو ما نراه واضحاً من خلال كتاباته التي اعتمد فيها على الذاتية التي تتضمن عواطف الحزن، والكآبة والأمل، وفي بعض الأحيان اللوم والثورة على المجتمع الذي يراه في صمت دائم، فضلاً عن اهتمامه بالطبيعة التي شغلت فكره، مما جعلها رمزاً لقضاياه المتعددة الثائرة على الظلم والاستعباد.

6_ اختار الشابي اسماً لديوانه (أغاني الحياة) تعبيراً عن مشاعره الذاتية العميقة التي عانى منها مجتمعه العربي والمجتمع التونسي بخاصة، فقد تغنى بالحرية التي يراها مشعلاً مضيئاً لوطنه ولشعبه، وتغنى بالحب وكل ذلك جعل الطبيعة هي المقياس الحقيقي لتعبيراته الشعرية الخالصة.

7_ اعتمد الشابي في أغلب قصائده الشعرية في التعبير عن واقعه السياسي والنفسي والاجتماعي المعادل الموضوعي الذي رأى فيه المتعة الحقيقية لإيصال ما يدور في خلجات قلبه المثقل بالآهات والحسرات التي عانى منها في حياته النفسية.

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

المصادر المراجع

1- إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2003.

2- أحمد حسن يسج، أبوالقاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995.

3- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971.

4- أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م.

5- المجلس الثقافي العام، طرابلس، 2008.

6- حسن دواس، المعادل الموضوعي في النقد الأنجلو، أمريكي الجديد، دراسة في المصطلح والمفهوم والمرجعيات، مجلة الأثر، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر، العدد 26، سبتمبر 2016.

7- ديوان أبي القاسم الشابي، أغاني الحياة، دار صار بيروت، ط1، 1991.

8- ديوان أبي القاسم الشابي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1992.

9- ديوان خليفة التليسي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1989م.

10- ديوان البارودي، دار الكتب المصرية، ج3، 1942م.

11- ديوان إمرئ القيس، دار المعارف، القاهرة، ط5.

12- ديوان شاعر الوطن الكبير (الفترة الثالثة)، ط1، على نفقة وزارة العمل الاجتماعية بالمملكة الليبية.

13- سناء عيتاني، الشعر العربي الحديث، قصة محاكاة، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2017.

14- سمية العموري، المناجاة في شعر أبي القاسم الشابي، كلية الآداب واللغات، جامعة أكلي مهندأ ولحاج، البويرة، الجزائر، 2015.

15- سميرة عمار الرباعي، المعادل الموضوعي مفاهيم وتطبيق، كلية الآداب الجميل، جامعة صبراته، العدد التاسع، يوليو 2020م.

16- علي مصطفى المصراتي، أحمد الشارف، دراسة وديوان "أحمد الشارف"، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط3، 2000م.

17- فوزية علي زوباري، المعادل الموضوعي في مدائح أبي تمام الطائي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج2، م87.

18- لسان العرب لابن منظور، دار الجبل، بيروت، لبنان، م5، 1988م.

19- ماتيس، ترجمة إحسان عباس، إليوت الشاعر الناقد للمؤلف، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، 1965.

20- محمد دغيم، مهرجان رفيق الأدبي، منشورات جامعة قاريونس، ط1، 1993م.

21- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة والثقافة، بيروت، لبنان، 1973م.

22- محمد علي كندي، الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 2003.

23- نهى حسين كندوح، المعادل الموضوعي المعنى في قلب الشاعر، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العددان (3،4).

24- نوال سي صاير، صدار نور الدين، شعر أبي القاسم الشابي، دلالة الرؤية والأداة، مقاربة بنيوية تكوينية، جامعة مصطفى اسطبولي معسكر، مجلة أكاديمية محكمة بالدراسات والبحوث النقدية والأدبية، مج 9، العدد 1، 2020.

25- وفيات الأعيان لابن خلكان، ج2، دار الجبل، بيروت، لبنان.

26-F.O.MATTHIESSEN, THE AEHIEVEMENT. OFT.S.ELIOT. 3RD EDITION. OXFORD UNIVERSITY PRESS, NEW .YORK A MDON, 1958.P150

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

The objective equivalent in the poetry of Abu al-Qasim al-Shabi "An applied study in his book "Songs of Life

MOHAMED NURI ABDULSALAM BENQAMO

Abstract:

This study aims to study a new standard of modern literary criticism, which entered the Arab literary arena on Western literature, which is what is known as subjectivity and objectivity or the "objective equivalent" that appeared at the hands of the American critic (TS Eliot) in his saying: (The Poetry is an escape from emotion by turning it into art.

In this, the writer may conclude to embody a particular emotion or incident that affected his life in a direct way, and in this we refer to subjectivity, which is the first image of expression, but there are social, psychological and political conditions that the poet resorts to embodying his suffering in an indirect way, and this is a reference to the "objective equivalent" that the writer uses He uses it in his poetry. This research examines the extent to which al-Shabi uses the objective equivalent in his book "Songs of Life" in an applied study to shed light on some of the words that al-Shabi used in his various poetic poems because of his artistic impact compatible with his feeling and feeling, for psychological, social and political conditions that he embodied in an indirect way that he resorted to, which is known Subjective subjectivity or objective equivalent.

Keywords: objective equivalent, poetry, applied.